شواش في فقه الأصول وضبابية في التنزيل

الحلقة 10

تاريخ التوطئة للإسلام في الغرب

تمهيد

لم يسبق للمسلمين أن عاشوا كأقليات معتبرة في المجتمعات الأوروبية، منذ أن تم طرد مسلمي إسبانيا من قشتالة سنة 1609، ثم من باقي المدن الإسبانية الأخرى سنة 1614 م مِن طرف ملك إسبانيا والبرتغال: فيليب الثالث {*Felipe III* (1578– 1621)}   .[1]

وتعبر الصورتان أسفله عن مآسي هذا الحشر، الذي أوعز به باباوات الكنيسة الكاثوليكية: الأولى رسمها "فيسنتي كاردوخو" (Vicente Carducho) **ويحتفظ بها متحف "البرادو" بمدريد،** (Museo del Prado, Madrid)**، والثانية تمثل طرد مسلمي مدينة بلنسية ورسمها: بير أوروميغ** (Pere Oromig)[2]

وقد جاء في الاتفاق[3] الذي تم بين ملكي: **أرجون** و**قشتالة** الكاثوليكيين: **فردينالد الثاني** و**إيزابيلا** (الصورتان الثالثة والرابعة على التوالي)، و**أبي عبد الله** أخر ملوك **بني نصر**، حين تنازل الأخير عن عرش مملكة غرناطة وعن جميع حقوقه فيها ما يلي:

- «أنّ للمُرُشْ (Moriscos) أن يحتفظوا بدينهم وممتلكاتهم.
- أن يخضع المرش لمحاكمة قضاتهم حسب أحكام قانونهم وليس عليهم ارتداء علامات تشير لكونهم مرش كما هو حال عباءة اليهود.
- ليس عليهم دفع ضرائب للملكين المسيحيين تزيد على ما كانوا يدفعونه للمرش.
- لهم أن يحتفظوا بجميع أسلحتهم ماعدا ذخائر البارود.
- يحترم كل مسيحي يصبح موريا ولا يعامل كمرتد.
- أن الملكين لن يعينا عاملا إلا من كان يحترم المرش ويعاملهم بحب إن أخلّ في شيء فإنه يغير على الفور ويعاقب.
- للمرش **حق التصرف في تربيتهم وتربية أبنائهم**.»

---

[1] *أنظر ما كتبناه بخصوص ذلك في: " كيف جمع "الثبات" و"الجريان" بين الشيخ ابن باز، وغاليليو غاليلي، والبابا أوربان الثامن؟" على هذا الموقع في: موضوع: " هل تمددت الأرض بعد نزول آدم إليها؟ {علم الدراية المتعدد التخصصات} .*

[2] *http://en.wikipedia.org/wiki/Morisco*

[3] *تم في يوم الجمعة* **23 من محرم** *سنة* **897 هـ** *الموافق لـ* **25 من نوفمبر** *سنة* **1491**.

لكن، ما إن استلم ملكي الكاثوليك غرناطة حتى تنكرا لكل هذه البنود، التي لم يجف بعد الحبر على ورقها، وشرعا في تنصير أهلها قسراً، وتجاوزوا ذلك إلى إصدار "**مرسوم الحمراء**" (الصورة) ، بإيعاز من المجرم في حق الإنسانية طوماس ده توركيمادا (**Tomás de Torquemada**) (1420 – 1498) رئيس محاكم التفتيش، المعين مباشرة من طرف البابا والخاضع له مباشرة ، القاضي بطرد السكان خارج إسبانيا في 31 مارس 1492م.

لكن، بمجرد أن فشلت جُهود التنصير من طرف رئيسَ أساقفة غرناطة الأول: **هيرناندو دي تلافيرا** (Hernando de Talavera) (1428 – 1502)   الذي انتهج سياسة الجزرة، عُوِّض بسيئ السمعة والذكر: الكاردينالَ: **فرانسيسكو جمنيز دو سيسرنوس** (**Francisco Jiménez de Cisneros**)   (1436– 1517)، الذي انتهج سياسة الترهيب، حيث شرع في تحريق كتب المسلمين في محارق عامة   ونظم احتفالات تحريق للموريسكيين   في الساحات العامة بدعوى الردة عن المسيحية البولصية الهرطقية**!**.

وكان طبيعياً أن يقاوم الغرناطيون هذه الانتهاكات لبنود اتفاقية الاستسلام، وغيرها من الانتهاكاتِ بالقيام عدة ثورات وانتفاضات استمرت أولاها من سنة 1499 إلى سنة 1501.

وهو ما أعطىَ السلطاتَ الإسبانية ذريعة ومبرراً إضافياً لإبْطال باقي الحقوق والالتزامات الواردة في المعاهدةِ.

وقد خير الغرناطيون سنة 1501 م، المفروض أنهم كانوا قد تنصروا من قبل، بين أمرين أحلاهما مر:

أ) التحول إلى المسيحية[4]، وهو ما لا يمكن لمسلم يعرف دينه ويعرف الهرطقة المسيحية البولصية الشركية، أن يفعله بحال**!** أو:

ب) الطرد إلى خارج الوطن.

 قلت:

[4] الموريسكيون أو الموريسكوس **بالقشتالية** هم الأسبان المسلمون الذين تم **تعميدهم** قسراً بمقتضى مرسوم **ملكي الكاثوليك** المؤرّخ في **14 فبراير 1502**(**6 شعبان 907 هـ**).

هذا الطرد يعطي فكرة عن مدى إمكان قيام تعايش وتسامح دينيين بين فئات شعب تحكمه حكومات دينية تخضع في منظورها الديني والسياسي لتأثير الكنيسة، سواء أكانت كاثوليكية أو غيرها.

الشاهد: لقد ساد نقاش بداخل بريطانيا، أواخر القرن السابع عشر، بين رجالات الدين الإنجليز الأنجليكانيين، حول شكل الحكومةِ الشرعية التي يجب أن تحكم الإنجليز:

أ) أتكون حكومة إكليروس مكونة مِن قِبل الأساقفةِ ؟، أو

ب) حكومة إكليروس مكونة مِن قِبل القساوسةِ ؟.

والملفت على أكثر من صعيد:

1) أن بالرغم من وجود خلافاتَ لا أول لها ولا آخر بين اللاهوتيين الأنجليكانيين حول الهويةِ الدقيقةِ للكنيسةِ الحقيقيةِ !،

2) وكون رجال الدين الأنجليكانيين لا يتفقون لا حول عِلْم اللاهوت ولا على نوع الحكومةِ التي يريدون أن يقيموها،

إلا أننا نجدهم، وهذا بيت القصيد، يتوحدون في الإصرار على **كون الدين المسيحي البولصي دين حق!**، يتميز بإقصاء باقي الأديانَ الأخرى كديانات وثنية! أو هرطقيات، ليستنتجوا أن الكهنة المسيحيون هم الأولى والأجدر لتولي مهام التشريع ومناصب التعليم في أي مجتمع مسيحي حقيقي.

قلت:

وإلى هذه الحقبة التاريخية المحورية من مخاض الفكر الأوروبي بحثاً عن نفسه، والإسلام يطرق الأبواب الموصدة بشدة، لم يكن من السهل إقناع المسيحيين وعلى اختلاف مشاربهم، بأن دينهم الذي يزعمون أنه الدين الحق! لا يزيد عن كونه هرطقة بولصية (نسبة إلى القديس بولص)[5]، استقوت بالنفوذ الإمبراطوري الروماني، على المسيحية الأصلية لحواري المسيح عليه وعليهم السلام، في القرن الرابع عندما تمسح الإمبراطور قسنطنطين الأكبر (Constantine the Great) (272- 337).   وصارت الهرطقة البولصية الدين الرسمي للإمبراطورية.

وهو ما ينبئك بضحالة الإخراج المسرحي لتمَسُّح الصحافي المصري مجدي علام   **المهاجر إلى إيطاليا، والذي يشتغل محرراً ونائباً للمدير بالجريدة الإيطالية: "كورييره لا سييرا" (*Corriere della serra*)!!!، ويدعي بأنه وُلد مسلماً!!، وما تغنيه هذه**

---

[5] أنظر لمزيد: "*Pourquoi l'Islam?*" على هذا الموقع.

الولادة، حتى لو صدق في دعواه، ولم يكن كما يقول مناهضوه بأنه مسيحي قبطي، مادام هو نفسه يصرح بأنه درس في صباه بمدرسة كاثوليكية إيطالية!!!!!!.

وبما أن الدين لا يورث في الجينات، فدخوله لهذه المدرسة، التي لا يمكن أن يدخل مسلم يفقه ولو اليسير عن الإسلام، أبناءه إليها بحال!، يجعله يخضع، ولو كان مسلماً بالوراثة، لغسيل مخ متقدم، إلى درجة أن صرح هو نفسه بأنه فكر غير ما مرة، عند استقراره بإيطاليا، في التحول إلى المسيحية!!!!!، على ما عهدنا فيمن تخرجوا من الإرساليات الأجنبية في دول العالم الثالث، حين فقدت تلك الإرساليات الذات والموضوع بأوروبا بسبب مناهج التعليم التي تطلعهم على حقيقة الكنيسة، وذهبوا يبحثون لهم عن ضحايا في العالم الثالث، مستغلين لبراءتهم الفطرية وحاجتهم الماسة إلى الغذاء بسبب الفتن والفقر، قبل أن يشبوا عن الطوق.

والعجب في رجب!!! هو أن يقول هذا الدّعي عن نفسه بأنه مسلم لائيكي!!!، وهو ما ينبئك بفهمه للإسلام، سواء أكان مسلماً بالوراثة كما يدعي، أم فقط يبحث لنفسه عن دين يعتنقه {أنظر على هذا الموقع الرسالة الأكثر تصفحاً من طرف الزوار: { ***Natalia's Question***} وجوابها { ***Reply to Natalia***}، حتى تتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في هذا النوع من الإخراج.

فما بالك أن يوجد مسلم به ذرة واحدة من إيمان يجرؤ على:

1) تأليف كتاب: "لتحيا إسرائيل" (**Viva Israele**)

ضداً على مأساة الفلسطينيين،
2) وينتقد الإسلام، وليس أفعال بعض المسلمين!
3) وتأليب الإيطاليين على الأقلية المسلمة المقيمة بإيطاليا بنعتهم ضمنا بالإرهابيين!، في كتابين حمل الأول عنواناً نقائضياً: "**أحب إيطاليا!**" (**Io amo!!!! l'Italia**)

، وحمل الثاني عنواناً يضرب على ذات النغمة وحمل عنوان: "**الكاميكازية من صنع أوروبي!!**" (***Kamikaze made in Europe***)

بينما يقول من يعرفونه بأنه ولد وتربى ونشأ مسيحياً قبطياً.
وهو الأجدر به والأقرب لمنطق الأشياء

قلت:

فهذا الشقي، وبعد أن طعن في رذالة العمر (55 سنة) ادعى، على غير ما هو منتظر من أي عاقل: تغيير دينه! الذي لم يكن له بدين!، وتحوله من الإسلام!!!! إلى المسيحية!!!!

وليس العكس، على غرار ما تفعله يومياً جحافل من الأوروبيين أكثر ذكاء وأكثر معرفة بالمسيحية والإسلام منه.

وقد أفسد على الكنيسة البابوية إخراج مسرحيتها هذه، التي لا يمثل فيها هذا الأمي الديني، الذي يخلط بين الإسلام، وتصرف بعض أتباعه، سوى دور الكومبارس، تجشم البابا بنيديكتوس السادس عشر **، المعروف بمجاهرته بالعداء للإسلام، ولا يُنتظر منه منطقياً وعقائدياً غير ذلك!!!، الاحتفال بهذه الردة المزعومة أمام الملأ وفي عشية عيد الفصح المسيحي، في إخراج مسرحي عبثي، لن يغير شيئاً من واقع كون الإسلام أصبح يتجذر بعمق في أوروبا، بعد أن حالت الكنيسة لقرون بين عقول الأوروبيين وبين اكتشاف بلسمه الشافي ضد كل الهرطقيات!**

وأنظر على موقعنا، واجعل من وكد واجبك تعريف آخرين به، حتى تقف ويقفوا على أساليب الكنيسة الكاثوليكية في التمويه على ضعاف العقول المحاور الثلاثة التالية:

أ) "أين كانت القرويين وأين كان رجالاتها يوم أن صلى إبليس على مذهب مالك ثم ركب الغمام وارتحل"، **حيث تجد نموذجاً لمثل هذا النوع من الردة بالغسيل الدماغي من طرف القساوسة! في تحول المترف الأمي المغربي ذي الأصول الجزائرية: محمد بن عبد الجليل (1904 – 1979)، بعد أن حط رحاله بمؤسسة فوكو للرهبان الفرانسيسانيين لمدة سنتين، وزاده وزاد عائلته من الإسلام معدوم، ليشغل منصب مستشار مع البابا، ويتسمى بجان عبد الجليل!!!!.**

ولا زالت الكنيسة تموه به وكأنه نموذج للحوار الإسلامي – المسيحي في كتب من شاكلة: "عبد الجليل شاهد على القرآن والإنجيل!" (ABD-EL-JALIL TEMOINS DU CORAN ET DE L'EVANGILE **، بينما سيرته وأفقه يشهدان بجهله لكليهما!**

ب) و{Vivre l'altérité en Islam} الذي يضع النقط فوق الحروف بالنسبة لمن يجهلون بأساليب الكنيسة البابوية وبالخصوص خرجات البابا بنيديكتوس السادس عشر.

ت) **و"محاورات في الدين والحضارة"** **، كي تأخذ فكرة عن تقمصات الكنيسة البابوية وبكونها لا يوثق بها ولا بباباوتها بحال!**

قلت:

وبما أن الموريسكيين كانوا قد تكونت لديهم، من خلال الممارسة، قناعة تامة **بحربائية الوعود الكاثوليكية** في انتهاك الاتفاقيات والعهود والمواثيق، فقد تظاهر أغلبهم مرة أخرى، لانعدام البدائل، بقبول التنصير، إلا أنهم تمسكوا بدينهم في العمق وزاولوا إسلامهم في الخفاء، بينما هاجر آخرون، ممن استطاعوا إلى دول الشمال الإفريقي وتركيا.

فهذا النوع من التعامل الفج واللا – إنساني مع المخالف في الاعتقاد نتج من كون الكنيسة هرطقية بالأساس، ولم تكن قائمة على التوحيد الحق، الذي جاء به المسيح عليه السلام، والذي سيتكرس نموذجه الأمثل في الإسلام.

لذلك، لم يكن غريباً ألا تقبل الكنيسة بالتعايش مع المخالف العقدي، متى تمكنت من السلطة، لضعف بنيتها الحجاجية، فما بالك مع المسلم، الذي يمثل نقيضها في المطلق، والذي تنفي مصادره وتستهجن كل أقانيمها من: تثليث، وفداء،.....إلخ. التي كرستها مجامعها المسكونية على مر العصور.

لكن، وبالرغم من كل هذه الفواجع، وحصول نفس الشيء لمسلمي المجر، فقد تمكن المسلمون إبان نهضتهم العالمية زرع بذور التساؤل في عقول الأوروبيين المتنورين، من خلال احتكاك الأخيرين بتراثيتهم في جامعات إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا، ستؤتي أكلها ولو بعد حين.

6.1) الموحدون يسائلون مسلمات المسيحية البولصية

مثل القرن السابع عشر الذي تم فيه طرد الموريسكيين من ديارهم ووطنهم إلا أن يقولوا ربنا الله الواحد الأحد، أزمة اجتماعية وسياسة بالنسبة لأوروبا قاطبة، وليس فحسب بالنسبة لإسبانيا، الغارقة في تخلفها وعدم تسامحها مع مواطنيها المخالفين للأغلبية في المعتقد، على ما تبين لنا من الطريقة الرعناء التي تعاملت بها الكنيسة الكاثوليكية البابوية مع أقلياتها.

وقد سعت حركة الإصلاح الدينية، التي انطلقت مع مارتن لوثر (**Martin Luthe**) (1483 – 1546)

سنة 1517، إلى إلغاء العديد مِنْ الممارسات المشينة لرجالات الدين المسيحيين مثل التجارة الدينيةِ المربحةِ في صكوك الغفران، واضطهاد التفكير الحرِّ، بدعوى الهرطقة!، وإلغاء العديد مِنْ المراسيمِ التنظيميةِ التي صمّمتْ بشكل واضح من أجل السَيْطَرَة على المجتمع والأفرادِ.

ولم يخطر على بال أحد، في غمرة النجاحات المتوالية للإصلاحيين، أن بمجرد استحواذ الكنائسَ الإصلاحية على السلطة، سيجعل زعماءَها الجدّدَ ينسون تماماً أهدافَهم الأصلية، ليقعوا في شرك ذات المحاذير

التي كانوا قد انتقدوها على الكنيسة الكاثوليكية والباباوات!، لنجدهم بدورهم يضطهدون الفكرَ الحر، ويجاهرون بالعداء لكل من خالفهم الرأي في العقيدة أو السياسة، حتى كادت فكرة الإصلاح أن توأد في المهد، لولا أن وجد اتجاه آخرُ في الإصلاح، أطلق عليه اسم: "الإصلاح الجذري"، ومثله فريقان:

أ) "حركة تجديد العماد" (Anabaptist) التي تتبنى شن معركةِ أخلاقيةِ ضد كل مظاهر الظلم الاجتماعي، والعودةِ إلى طريقةِ الحياة الأصليةِ للكنيسةِ المسيحيةِ،

ب) الموحدون (Unitarian) أو "المناهضون لعقيدة التثليث" (Antitrinitarian) ذوي الميول الإنجيليةِ والمتمسكين بالعقلانيةِ، الذين اختطوا لأنفسهم كهدف راهن ومستقبلي: **التفكيك الكامل للعقيدة المسيحية والبحث عن معانيها الأصلية في الكتاب المقدّس وحده.**

وقد أخذ دعاةُ الحركةِ الجذريةِ على زعماء الإصلاح القدماء الرئيسيين تَأجيلهم للإصلاح وبقاء الإصلاحاتَ الدينية والدنيوية منفصلة عن بعضها البعض وراموا هم في المقابل إلى تَوسيع مجال الإصلاح لينصب ليس فحسب على الجانب اللاهوتي بل وعلى الجانب الاجتماعي أيضاً، بهف تغيير الإنسان والعالم.

وقد انشق العماديون الجدد عن مصلحي ويتنبرغ الذين تزعمهم لوثر، ليس بسبب اختلافاتِ لاهوتيةِ، بل لاختلافهم معهم حول السياسةِ الاجتماعية.

ورغم أن لوثر نفسه دعا في كتاباته الأولى إلى إصلاح المجتمع العلماني ونظامه، إلا أنه سيتناسى كل ذلك بمجرد أن وضعته الظروف على المحك، لنجده يختار الوقوف إلى جانب الحكام ضد ثورة الفلاحين، حين ذهب يسوغ للحكام بتأويل متعسف لنصوص العهد القديم، الإقدام على الفتك بالفلاحين، مزينا لهم أن تلك السياسة القمعية هي إرادة الله!.

وقد مثل القسٌ **طوماس مونزر** (1490 - 1525) (Thomas Münzer) وأتباعه، مَع تَشْكِيلة من المجموعاتِ الأخرى التي ستتولد عنهم لاحقاً، ومن بينها حركة "**مجددي العماد**" أول القائلين بتنزيل العقائد المسيحيةِ على الحياةِ الاجتماعية.

أما حركة المناهضين للتثليث فقد نَتجتْ مِنْ نزاع لاهوتي أوسع حول تفسير الكتاب المقدّس وتأويله.

وقد تجسدت هذه الحركةِ في شكلها المتقدّم في "كنيسةِ الموحدين" (Unitarian Church) التي تطورت بشكل مستقل في "ترانسيلفانيا" (Transylvania) وفي بولندا، وتعرف أيضاً: ب"**الكنيسة الثانوية**"، أو :

"الإخوان البولنديين"، أو: الآريين، نسبة إلى القس الليبي الإسكندراني: **آريوس** (256 - 336 م)

الذي يقول بأنّ "الكلمة" ليست بإله، وبأن المسيح، وهو مولود بالكلمة، لا يُشارك الله في طبيعتهِ، أو: "السوسينيين"[6].

وتنسب حركة السوسينيين إلى مؤسسها: الخبير القانوني والمهاجر الإيطالي ليليوس سينوس (**Lelio** (1525 -1562) **Francesco Maria Sozini**) الفار بدينه إلى بولندا من اضطهاد الكنيسة البابوية.

وكان والده مدرساً بجامعة **بادوى** (Padoua) الإيطالية معقل الرشديين اللاتينين (نسبة إلى أبي الوليد: ابن رشد الحفيد) وبَدأ هو نفسه كمحامي بدِراسَة التوراةِ بحماس جعله يَتعلّمُ العبرية واليونانية، وحتى **اللغة العربية** من أجل تعميق فهمه.

وقد غادر مدينة بولونيا وهو شاب وانتقل إلى ضواحي مدينة فينيسيا ، حيث وجد فيها فسحة من الحريةِ الدينيةِ لم تكن تتوفر في باقي مدن إيطاليا. وَقد وجدتْ كتاباتُ الإسباني: ميكائيل سيرفيتوس (**Miguel Serveto**)(1511– 1553) ، الذي كانت الكنيسة قد حرقته لأفكاره التي أخذ أغلبها من المسلمين، طريقها إلى العقول هناك وأثرتْ في أذهان الكثيرين.

يقول والاس:

قابلَ ليليو هؤلاء الناس وأصبحَ مَفْتُوناً بوجهاتِ نظرهم وعانقَهم بكُلّ حماس وسذاجة كأي شاب يسعى إلى البحث عن الحقيقةِ الدينيةِ ".

وقد أثر فيه بشكل خاص أحد الغنوصيين واسمه: "كاميو" (Camillo)أ فانفتح أمامه مشهد جديد. وإلى ذلك الوقت، كان فكره **قد شل تماماً بتلك العقائدِ الصارمةِ للكنيسةِ المُؤَسَّسةِ**. لقد شعر الآن بحرية جديدة لم يعهدها من قبل. وأخذت حياته معنى جديداً، وتَمنّى تَكريس حياته للبحثِ عن الحقيقةِ.

[6] ويَشتقُّ الاسمُ الأخيرُ مِنْ اسم الإيطالي: "فوستو سوسيني" (Fausto Sozzini)، العالم الديني الإيطالي الذي نظّم مذهبَ كنيسةِ الإخوةِ البولنديةِ وقد جُمِعتْ كتاباته في تسعة مجلدات ونَشرتْ في أمستردام سنة 1656.

ومن المعروف اليوم أنّ عددَ الأعضاء المنخرطين في الجمعية السريةِ الفينيسية، تجاوز الأربعين بقليل. وعندما اكتشفت هذه الجمعية في النهاية من طرف السلطة، قبض على بعض الأعضاء وأعدموا، بينما حالف آخرون الحظ ففروا لاجئين إلى بلدان أخرى.

والأعضاء المعروفون الآخرون في هذه الجمعية بالإضافة إلى ليليو سوسيني، هم: أوكينوس (Ochinus)، و**داريوس** سوسيني (ابن عم سوسيني)، وآلسياتي (Alciati)، وبوكالي (Bucali).

وهناك مأثور قوي يقول بأن الأخيرين **اعتنقا الإسلامَ في النهاية**.
ويطلق الدكتور وايت (White)، في محاضراتِه البرومبتونية (Brompton lectures) على أتباع سوسيني: "أتباع النبي العربي"
وبينما كان وجود هذه الجمعية ما زالَ في طي السر والكتمانً، انجذب ليليو سوسيني نحو رجلين خارجها. أحدهما كَانَ سيرفيتوس (Servetus) والآخر كَانَ كالفين. وكانت ل سيرفيتوس الشجاعة لإعْلان إعتقادِه في الوحدةِ القدسيةِ جهاراً أمام الملأ، بينما أعلن كالفين عن نفسه كقوة يجب أن يحسب لها حسابها في الدوائرِ الإصلاحيةِ لأوروبا.

وقد قرّرَ سوسيني مقابلة كالفين أولاً، إلا أن أمله فيه خاب بمرةً بمجرد لقائه، حيث وجده مرتهناً كأيّ كاهن كاثوليكي روماني. فتَغيّرَ شعوره نحوه (من الإعجاب) إلى الاشمئزاز حين أكتشف بأنّ كالفين ساعدَ شخصياً في القبض على سيرفيتوس. ومنذ تلك اللحظة، أعتمد سوسيني على أنموذج سيرفيتوس وإلهام كاميو في دِراساتِه الشاملةِ للمذاهبِ المقبولةِ للكنيسةِ المُؤَسَّسةِ.

وكتب أ. والاس (A. Wallace) في "سيرته المعادية لِلتثليثيين" (*Anti-Trinitarian Biography*) يقول:

كان هناك "العديد مِنْ الأشخاص من ذوي الرتب البارزةِ والنيل السامي في مدينةِ "فينيسيا" الذين اعتقدوا ما اعتقد سيرفيتوس. **وحيث أن هذه الآراء لَمْ يسمح لها مجلس شيوخ المدينة أن تنتشر بشكل مفتوح، فإن من اعتقدوها بدؤوا يجتمعون في السرِّ. وكَانتْ نيتهم تتجه إلى تدريس حقيقة المسيحيةِ وتَجديد تعليم السيد المسيح في صفائه.**

وكتب لوبيسنيسكي (Lubinietski) في كتابه: "**تأريخ الإصلاح في بولندا**" (***A History of the Reformation in Poland***):

لقد توصلوا (السوسينيون) إلى نتيجة مفادها: أنّ هناك إلهاً واحداً، وبأن السيد المسيح كَانَ حقاً إنساناً. وأنه تم خلقه من طرف روح القدس في رحم العذراء العفيفة. وأن عقيدة التثليث ولاهوتِ السيد المسيح أفكار مِن جراب الفلاسفةِ الوثنيين.

وهو ما ينبئ بالوجهة التي سيتولاها سوسيني لاحقاً.

وستنتشر أفكار السوسينيين كالنار في الهشيم في أوروبا، عندما انتسب المحامي فوستوس سوسينوس

(Faustus Socinus) (تَ 1604 م) ، ابن أخ المؤسس إلى الحركة، وعمل كمنظر للحركة على نشر أفكارها بمقارعة الحجة بالحجة، ماتحاً من كل مصدر ديني غيبته الكنيسة البابوية.

وقد أصدر السوسينيون، الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم: "**الموحدين**" (Unitarians) سنة 1574 كتاب "تعليم الموحدين" (Catechism of the Unitarians)، عَرضوا فيه وجهاتَ نظرهم بخصوص طبيعةِ وكمال الربوبيةِ، بالإضافة إلى المبادئ الأخرى لمجموعتِهم.

وأنتشرت أفكار المجموعةُ في بادئ أمرها في بولندا حيث وجدت لها قبولاً واسعاً بين الناس. وهو ما ثمنته فشرعت في تأسيس مدارس خاصة والعمل على نشر أفكارها وأدبيتها، إلا أن السلطات الولندية تدخلت وبإيعاز مباشر من الكنيسة الكاثوليكية،التي لم تجد من حيلة لوقف مدهم سوى بحظرهم سنة 1638 م. وإلى هذه الحقبة الحرجة، فقد ساد إعتقاد على نحو واسع بأنَّ السوسينية ستصبحُ الاعتقاد المهيمن في كل أرجاء أوروبا .

وما ميز السوسينيين عن غيرهم اعتدادهم بالعقلانية في أمور الدين، وعدم قبول الترهات التي لا يسندها منطق أو عقل، لذلك كان طبيعياً أن يتصادموا مع عقيدتي "تأليه المسيح"، و"التثليث"، اللتان لا سند لهما في المطلق سواء من الكتاب المقدس أو من بديهية العقول، كما لُخّصوا ذلك فيما عرف: ب: "التعليمِ الراكوفي" (Racovian Catechism). وقد كانت مدينة راكوف (Rak´w) مركز تجمعهم ومن هنا جاء اسم العقيدة نسبة إلى البلدة. وسيطردون من البلدة سنة 1643 م.

ويمكن اعتبار الحركة السوسينية نمطاً مبكّراً مِنْ التوحيديةِ الأوروبية" القائلة ب "توحيد الربوبية" و"توحيد الألوهية". بل لا زال اسمهم يستعمل وإلى اليوم للإشارة إلى الاعتقاد القائل بأن السيد المسيح عليه السلام لَمْ يسبق في الوجود وجوده كإنسان، على ما يهرف به من دون دليل من الكتاب المقدس، لاهوتيو الكنيسة البولصية.

ويحاول الكاثوليكيون، وهم شغوفين جداً إلى درجة الهوس، بتصنيف المخالفين لهم في الاعتقاد، اعتبار السوسينيين بعثاً جديداً للقائلين ب: "مجرد إنسان" (Psilanthropism)[7]، بالنسبة لطبيعة المسيح عليه السلام.

وبهذا المعنى القسري فهم يلتقون مع القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بخصوص إنسانية المسيح.

وقد بدأت تظهر في هذا القرن كتابات لمن سيعرفون ب "**الألهانيين**" (Deistes)، أي الذين يعترفون بوجود الخالق، لكن لمناهضتهم للكنيسة وتصرفات رجال الدين اللا-أخلاقية، وعدم وقوفهم على الإسلام في مصادره الأولى بعد، سينكرون كلاً من الوحي والآخرة! ويقولون بأن معرفة الله متاحة للعقل المجرد!

وسيكون لهؤلاء، بالرغم من قصورهم في فهم التوحيد، خصوصاً وليس بأيديهم سوى نصوص العهدين التي شابها الكثير من التحريف، الأثر البالغ في تصور بعض المتنورين الأوروبيين للدين عامة وللإسلام خاصة،

---

[7] (وتعني: مجرّد، فقط) والمفردة : "أنتروبو" psilo) مكونة من شقين: البادئة اليونانية بسيلو (psilanthropism كلمة: "بسيلانتروبيزم" ( ) (وتعني: بشر، أو إنسان). وقد رفض مجمع نيقيا هذا الاعتقاد. وعدا السوسينيين فهناك جماعتان أخريتان تشاركها في الاعتقاد anthropos( )، وكنيس الأمل الموهوب Christadelphians خصوص إنسانية المسيح عليه السلام وهما: جماعة الكريستادلفين" (Christadelphians)

سيقود الأجيال اللاحقة عنهم، بعد تعرفهم على المصادر الإسلامية التي ترجمت إلى لغاتهم، إلى تفهم أكبر لكل هذه المعضلات وتمهد لإنبات الإسلام في أوروبا.

وقد مثل كتاب البريطاني: روبرت هوارد (Robert Howard): "تأريخ الدين كما عبث به رجال الدين" (*The History of Religion, as it has been abused by Priestcraft*) المنشور سنة (1694) من خلال عنوانه أحد أبرز هذه المساهمات.

استعرض هوارد في كتابه مناورات رجال الدين. وقال بأن الدين المسيحي دخله الفساد منذ البداية بواسطة ترهات الكهنة، الذين استخدمَوا كُلّ أنواع التمويه مِنْ "أسرار" و"غموض ميتافيزيقي" للتَأسيس لعقيدتهم الخاطئةِ.

ولم يفته أن يقيم مقارنة بين بعض طقوس المسيحية البولصية ونظائرها في عبادة إيزيس المصري، من جهة "الرمزانية" و "الأسرارية" ليقرر بأن المسيحية أخذت الكثير من المصريين.

وسرد أمثلة بين من خلالها بأن كُلّ الكهنة الوثنيين والكاثوليك المتأسين بهم عمدوا دوماً إلى خَلْق غُمُوض مذهبي لضمان احتكارهم التفسيري الخاص للنصوص.[8]

وأكد بأن كتابه موجه بصفة خاصة إلى الوثنية الواضحة في الكنيسة الرومانية، حيث يحتكر الكهان لوحدهم تفسير النصوص الغامضة، من أجل إبعاد العامة عن التساؤل. ومثل لذلك بعقيدة التثليث التي تتنافى مع العقل.

وظهرت كتب أخرى تضرب على ذات النغمة، لكن منوعة عنها باستحضار بعض ما أغفله مؤلفون آخرون مثل كتابات: اللاهوتي المتخصص في العبرية: جون سبنسر (John Spencer) (1630 – 1693 م) صاحب كتاب:"حول طقوس الشريعة العبرية.." (**De Legibus Hebraeorum Ritualibus Et Earum Rationibus, Libri Quatuor**) المنشور سنة 1685 م في أربع مجلدات، والذي يعتبر أول مؤلف في الديانات المقارنة ظهر في أوروبا، على غرار ما كان قد عرف المسلمون ستة قرون من قبل في كتابي: " الفصل في الملل والأهواء والنحل "   للإمام أبي محمد ، **علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي** (384 هـ/994 م – 456 هـ/1084 م)، و" الملل والنحل"   **لأبي الفتح تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني** (ت: 584 هـ/1188 م)، و"تشارلز بلاونت" (Charles Blount) (1654 – 1693) في كتابيه: "روح العالم: أو عرض تاريخي لآراء القدماء حول روح الإنسان بعد هذه الحياة" (*Anima Mundi; or an historical Narration of the Opinion of the Ancients concerning Mans*

---

[8] أنظر لمزيد: "*التأويل بين الشطح اللاهوتي والتخرص الفلسفي والتعالم الواهم*" على هذا الموقع.

(*Soul after this life*) المنشور سنة 1679 م و "ديانا الفساوية العظيمة" (*Great Diana of the Ephesians*) المنشور سنة 1680 م، و"**جون تولاند**" (John Toland) صاحب كتب: "رسائل إلى سيرينا" (*Letters to Serena*) المنشور سنة 1704 م، حيث ناقش فيه أصول الوثنية وتاريخ خلود الروح ، واللورد إدوارد هربرت الشربوري (Lord Edward Herbert of Cherbury (1583-1648)) (1583 – 1648 م) في كتب: "حول الحقيقة،كما هي متميزة عن الوحي والمحتمل والممكن والخاطئ" (*De veritate, prout distinguitur a revelatione, a verisimili, a possibili, et a falso*) المنشور في باريس سنة 1624 م، و"الديانة اللائكية" (*De Religione Laici*) المنشور سنة 1645 م، و "ديانة الأمميين" (*De Religione Gentillium*) المنشور بعد وفاته سنة 1663 م و"حوار بين معلم وتلميذه" (*Dialogue between a Tutor and His Pupil*) المنشور سنة 1750 م.

إلا أن أهم ما سيميز حقبة تسعينات القرن السابع عشر الأوروبي بروز الموحدين كحركة حاسمة في تطوير فكرةِ التنويرَ من جهة الدين، بحيث يمكن الجزم بدون خلف، والأدلة على ذلك أكثر من أن تستوعب أو تستقصى، بأن:

احتكاك الأوروبيين بالمسلمين وبتراثهم العلمي، لعب الدور الأكبر في إحداث النهضة أولا، ثم التنوير اللاحق، وإلا ما كان لأوروبا أن تحرج قط من ظلاميتها التي وضعتها فيها الكنيسة ولأزيد من ألف علم.

فكل أساطين الفكر الأوروبي إبان فترة التلاقح هذه، متحوا من الإسلام إما من طريق مباشر، أو من طريق غير مباشر، دروا أم جهلوا، إلى درجة أن العديد مِنْ الأنجليكانيين الأرثذوكسيين تبنوا مواقف معادية لعقيدة التثليث إما جهراً أو خفية.

ويكفيك أن عالماً مخضرما ورياصياتي وفلكي وفيزيائي من عيار إسحاق نيوتن (Isaac Newton**) (1643 – 1727)** **سيتأثر بفكر السوسينيين، أي أتباع النبي العربي، ليفكر في أمر التثليث الربوبي بجدية وتقوده أبحاثة السرية في الدين إلى تبني الألهانية، بينما سيصرّحَ تلميذه وليام وينستون (*William Whiston*) (1667 – 1752)** **، الذي خلفه على الكرسي اللوكازي للرياضيات (*Lucasian professor*) بالفم الملآن بمعارضته الصريحة لعقيدة التثليث في مؤلفه: "الخطب والمقالات" {*Sermons and Essays* (1709)}.**

وعندما طلب منه الاعتذار عما ورد في الكتاب رفض، فنودي عليه للمثول أمام رؤساء جامعة كمبريدج، فاتهموه بالهرطقة!!!! وعزلوه عن التدريس في 30 أكتوبر 1710، وحاولوا تقديمه إلى المحاكمة

بتهمة الهرطقة، لولا أن توفيت الملكة آن *(Queen Anne) (1665 – 1714)*   ملكة بريطانيا فأسقطت التهمة.

وقد كَانَ جريئاً بما فيه الكفاية، والخطر داهم، ومحاكمته على الأبواب، لعَرْض معتقداته الدينية في سلسلة كراريس حملت عنون: "**المسيحية الأولى أنعشتْ من جديد**" (***Primitive Christianity Revived***) خلال الفترة (1711-1712).

ولأنه رام العَودة إلى الشكلِ المبكّر للمسيحيةِ الأولى، فقد أسّسَ جمعيةَ للتَّرويج للمسيحيةِ البدائيةِ سنة **1715** جعل بيتِه بلندن مقراً لها. وسيترُكَ الكنيسة اللأنجليكانية سنة **1747** بسبب إعتراضِه على العقيدة الأثنازية، نسبة إلى البابا أثنازيوس الأول السكندري المصري (*Pope Athanasius I of Alexandria , (293 – 373 م)* ، القائل بعقيدة التثليث، وينضم إلى المعمدانِيين (Baptists).

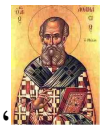

 قلت:

اللافت في حركة التوحيديين عامة والسوسينيين من بينهم خاصة، هو أنهم حاولوا تمثل الإسلام من خلال ما عرفوا عنه مترجماً إلى لغاتهم المحلية، قبل أن يعمموه إلى باقي أوروبا.

ونحن نعرف هذا المنحى عندهم من خلال مُطارحات مناويئيهم.

فهذا الأنجليكاني الإيرلندي: تشارلز ليسلي (Charles Leslie) (16650 – 1722) يرد على أحد السوسينيين البريطانيين بخصوص معتقدهم في التوحيد في كتابه: "**مناقشة الخلاف السوسيني**" (*The Socinian Controversy Discussed*) (1708) "[9]:

محمد مسيحي أكثر بكثيرُ مِنْ هؤلاء (السوسينيين)، وموحد أكيد، لكن هؤلاء لَيسوا في العالمِ كما هو (محمد)، لذا فلن تستطيع ضم محمد إلى حزبك، وإلا رجمك الناس!، لأنهم جميعاً لديهم بغض عظيم لمحمد!!![10] "

[9] *Leslie*, Theological Works, *II, 313-14.*

[10] *ولم يسائل نفسه، كيف لهم أن يبغضوا ما لم يحيطوا به خبرة، ولا قرءوا عنه سوى ما افترت الكنيسة عليهم من أراجيف وأكاذيب سيكتشفها أوروبيون لاحقون!.*

ومنه يتبين أن المنافحين عن كنيس التثليث، دأبوا على الجمع في سلة واحدة بين السوسينيين والمسلمين، وإن بطريقة سمجة وإنفعالية وقالبه للحقائق، من خلال اتهام **السوسينيين الموحدين** ب **"الوثنيين الإسلاميين"!!!!.**

وهو تقابل نقائضي في حد ذاته، وينم عن الأفق المعرفي لليسلي بخصوص الإسلام.

قلت:

وبما أن الحمق أنواع، وبعضه شر من بعض، فلن نعجب أن نرى ليسلي يصرح بأن كتابه هذا سيمثل:

" أقصر وأيسر منهج في التعامل مَع الموحدين لإثبات حقيقةِ الدين المسيحي بالبرهان المعصوم من الخطأ، مِنْ خلال أربع قواعدِ فقط، لا تتماشى مع أيّ خدعة وجدت لحد الآن أو يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ محتملة الوقوع في المستقبل ".

وهذه القواعد الأربع التي يكفي تطبيقها بصرامة، بحسب ليسلي، للبرهنة، وليس مجرد الإحتمال ، بل على اليقين المُطلق لحقيقةِ المسيحيةِ، هي:

1. أن تَكُونُ الحقيقةِ على شكل يمكن للحواس الخارجيةِ: عيونهم وآذانهم، قضاة عليها،
2. أنّ يَكُونُ البث فيها علناً وأمام الملأ،
3. ألا يُكتفى بتذكرها من خلال النصب العمومية فقط، بل بتأدية بَعْض الأعمال الخارجيةِ،
4. أن يؤسس لتلك النصب وتلك الأعمال، بحيث تبدأ منذ اللحظة التي تحققت فيها المعطيات.

ولم يدر بخلد ليسلي، وقد غبش اعتقاده الفاسد على منطقه، أن الموحدين يمكن أن يثيروا عليه إشكالاً واحداً فقط، تطبيقاً للقاعدة الأولى، لإثبات فساد معتقده.

والإشكال هو:

كيف أجاز المسيحيون البولصيون لأنفسهم تبني "عقيدة التثليث"، بينما لا سند لها، لا من العهد القديم ولا الجديد، وكونها فوق هذا وذاك شراً وثنياً محضاً، لا يتنازع بشأنه عنزان!

لكن، لا حياة لمن تنادي!

لكن، إذا كان اهتمام الأوروبيين بالإسلام بدأ مع بزوغ الدعوة الإسلامية، فإن القرن السابع عشر، جدد هذا الاهتمام، خصوصاً وقوات الباب العالي قاب قوسين من فتح أبواب مدينة فينا[11]، لولا خيانة الإخوة الصفويين الإيرانيين، وتغليب السياسيين على الجانبين الإسلامي والأوروبي للمصلحة والمصلحة فقط في تبادل المنافع، حتى أن أسطول الباب العالي كان يشتو بمدينة تولون الفرنسية، لحمايتها من هجومات الحلف المقدس الذي تقوده البابوية.

فعلى هذه الخلفية السياسية، والموحدون لا تخلو منهم بلدة أوروبية، نجد على الجانب المقابل لبحر المانش الكاتب الفرنسي: "بيرنار لز بوايي دو فونتونيل" (Bernard Le Bouyer de Fontenelle)

(1757 – 1657) صاحب كتاب: "تاريخ المعجزات" (*l'Histoire des oracles*) ، الذي هو ملخص منقح لكتاب: حول "المعجزات" حمل العوان اللاتيني: (*De oraculis veterum ethnicorum dissertations*) الذي صدر للطبيب الهولندي: "أنطونيوس فان دال" (*Antonius van Dale*) (1638 – 1708) سنة 1683 م.

بل امتدت العدوى إلى ما وراء الأطلسي على شاطئه الغربي لنجد موحداً مرموقاً وهو: **طوماس جيفرسون (Thomas Jefferson) (1743 - 1826)**

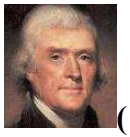

[12]، أحد آباء الثورة الأمريكية والرئيس الثالث **الأمريكي، ينشأ أنجليكانياً، إلا ليتحول مع بلوغ أشده إلى " ألهاني" (Deist) يؤمن بأن الخالق لا يتدخل في شؤون هذا العالم !.**

وقد كتب في مذكراته في أواخر حياته:

{ أنا مسيحي حقيقي! إلا أن الرسالة المسيحية حرفت وصيغت من طرف الكنيسة }

---

[11] *من المراجع المهمة لهذا الاهتمام المتجدد بالإسلام:*

1) N. Daniel, The West and Islam *(Edinburgh, 1980);*
2) R. Southern, The Western View of Islam *(Harvard 1962);*
3) E. Said, Orientalism *(1978), 1-80;*
4) J. J. Saunders, 'Mohamed in Europe: A Note on Western Interpretations of the Life of the Prophet', History *39 (1954);*
5) J. Kritzeck, 'Moslem-Christian Understanding in Medieval Times', Comparative Studies in Society and History *4 (1961-2);*
6) G. L. Van Roosbroeke, Persian Letters Before Montesquieu *(1932);*
7) E. Renan, Averroes et Averroisme *(Paris, 1852)*
8) B. P. Smith, Islam in English Literature *(Lebanon, 1939);*
9) A. Hamilton, William Bedwell and the Arabists 1563-1632 *(Leiden, 1985); N. O'Brown, 'The Prophetic Tradition',* Studies in Romanticism *21 (1982). On the importance of travel literature, 13) R. 10)W. Franz,* The English Traveller and the Movement of Ideas 1660-1732 *(New York, 1968); 14)*
11) G. Rice, 'Early English Travellers to Greece and the Levant' in Essays and Studies *(Michigan, 1939);*
12) E. K. Shaw, 'The Double-Veil: Travellers' Views of the Ottoman Empire, Sixteenth through Eighteenth Centuries' in E. K. Shaw and C. J. Heywood (eds.), English and Continental Views of the Ottoman Empire *1500-1800 (Los Angeles, 1972)..*

[12] *أنظر باقي أفكاره في:*

1) Malone, D., 1948 - 1981: Jefferson and his time, Boston: Little , Brown, Vol. I, pp. 109.

2) Henry Steel Commager, ed., 1945: " Documents of American History, New York: Crofts, Doc. № 80, pp. 126.

3) Cunningham, N., E., Jr., 1987: " In Pursuit of Reason: The Life of Thomas Jefferson, Baton Rouge, Luisiana state University.

وهو كاتب مسودة قانون فيرجينيا بخصوص " الحرية الدينية " سنة 1786 م الذي جاء فيه:

{ بأن لا رجل يجب أن يُكره على اتباع أو مساندة أي عبادة دينية .. ولكن كل الناس يجب أن يكونوا أحراراً في اعتناق ما يشاءون وأن يجادلوا للحفاظ على أرائهم بخصوص ما يعتقدون }

قلت:

وكما كان منتظراً، فقد اعتبرته الكنائس الهرطقية البولصية ملحداً!

بل لم يسلم حتى من انتقاد أحد المؤسسين الآخرين وهو ألكسندر هاملتون (**Alexander Hamilton**)

(1757 - 1804) الذي قال فيه سنة 1792:

{ كم يمضي من الوقت قبل أن تؤلّه السمات الحقيقية لهذا الرجل!..ليست لديّ المعرفة الكافية بتاريخ حياته السياسية لأقرر, لكن توجد دائماً " أول مَرّة " عندما تتكشف السمات المخفاة بفن التقمص..}

وقال عنه ممثل جنوب كارولاينا ويليم لافتون سنة 1792:

{..تحت غطاء التواضع تقبع أكبر روح طموحية، أكبر أنفة ورفعة، وتلك المظاهر الخارجية للديمقراطية تمكن فقط من حجاب رقيق للأدلة الداخلية التي تبين عن التوهج الأرسطقراطي، محبة الجنس والأبيقورية (أصحاب اللذة المنسوبين إلى مدرسة الإغريقي أبي قور }

وجيفرسون هو القائل[13]:

{ لا يضُرُّني أن صَرّح أحد جيراني بأن هناك عشرون إلهاً! ، أو لا إله على الاطلاق! فهو لا يدخل يده في جيبي، ولا يكسر قدمي!}[14]

قلت:

فهذا القول، وعلى ما فيه من " كفر بواح " من منظور الإسلام، لا يخرج عن قاعدة:

﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾

13 أنظر: Ceaser. J. w. et al., 1995, pp. 53.

14 أنظر: Malone, D.,Vol. 1, pp. 275.